مـــدخل

تؤلف الحقبة التاريخية التي انتهت عام ١٩١٥ ، في رأي كينز : «حقبة مدهشة من جهة التطور الذي حققه الانسان » ، كما بلغت فيها الذروة التي سجلها العـــالم الليبرالي والرأسمالي » . ففي الوصف البليغ الذي رسمه لنا هذا العالم الاقتصادي المشهور بيان مفصل لهـذه التطورات التي تحققت والتي تتمثل ، على الوجه الامثل ، في ازدهار الدول ، وفي هذا الغنى والبحبوحة التي توفرت للأفراد وبهذا الشعور العام بالطمأنينة . فالعالم كله يبعث الى اوروبا الغلال والمحاصيل التي تضن بها عليها حقولها ، كما ترسل اليها المحاصيل الاستوائية النـادرة التي لم تكن لتخطر على بال احد في الامس القريب وهذه المحاصيل والغلال التي يؤلف وجودها اليوم ، علامة من علامات البذخ والرفاه . كذلك فتح العالم ابوابه على مصراعيها امام المصنوعات التي باستطاعة المصانع الاوروبية وحدها توفيرها له . فبرزت لنا صورة عالم مزدهر منفتح بحيث لم يبق من الحواجز المعيقة سوى ظلـها ، وحيث تتوافد وتسير بحرية مطلقة ، الناس والبضائع والسلع ورؤوس الاموال ، والافكار ، وحيث بلغت حركة الانتـــاج والتجارة ، في اوروبا ، سدرة المنتهى ، وسجلت أعلى مستوى عرفه تاريخ البشرية جمعاء .

وهذا الموطن الاسطوري للثروة السابغة ، وهذه « الجمهورية المثالية » التي يصفها لنا كينز ، هي ابعد من ان تمثل العالم القديم حتى ولا اوروبا باجمعها . بل هي صورة قسم من اوروبا «اوروبا السائدة المسيطرة » ، ممثلة ببعض اقطارها الواقعة الى الغرب او في القلب ، والتي يؤلف كل منها مشعلا من « مشاعل الحضارة الاوروبية » . والدول التي اطلت حديثاً على العالم في الخارج ، كالولايات المتحدة الاميركية واليـــابان ، هذه الدول التي تطمع في ان تكون لها حصتها في المشروعات الاستثمارية الكبرى ، هي من حفيدات اوروبا ومن تلميذاتها النابهات بعد ان اقتبست منها : مناهجها وطرائقها ومثلها واساليب عيشها . وعلى نسبة ما تمثلتاه من الطابع الاوروبي استطاعتا تمثيل هذا الدور الذي لعبته اوروبا من قبل .

وهذه السيطرة التي تمت للرجل الابيض — او بالاحرى لفريق منه — وهي سيطرة لا تعدو

مع ذلك ، القرن السادس عشر ، اعترفت بواقعها الشعوب التي دارت في فلكها ، بعد ان تناسى الناس اصولها الحديثة امام ما شهدته من التطورات المدهشة التي حققتها في القرن التاسع عشر والنجاحات الهائلة التي سجلتها . وبفضل هذه السيادة وفي سبيلها امكن ، على ما يبدو ، تحقيق الوحدة في كوكبنا الارضي هذا . فالنظام الاقتصادي والسياسي الذي مكّن لهذه النجاحات هو من المتانة والصلابة بحيث تحدّت كل خطر . فالمشاعر التي تشد الناس الى الماضي واصحاب النظريات الخيالية والثورية التي قـــال بها فريق صغير ، هي التي اخذت تنتقص من قيمة الرأسمالية الليبرالية والديموقراطية النيابية التي لم يشكّ مع ذلك ، احد بالمستقبل الزاهر الذي سيطل عليها .

وبعد ذلك بأربعين سنة ، وفي اعقاب حربين عالميتين وازمة اقتصادية ، لم يشهد التاريخ من قبل مثل هذا الاتساع او الشمول الذي اتخذته لها ، تغير الوضع بغيره تماماً . فالازمة التي تمخض عنها العالم منذ مطلع القرن ، والتي انفجرت مدوية عام ١٩١٤ ، هزّت اوروبا من اساساتها . وهذه الحرب الاهلية التي اكتوت اوروبا بلهيبها المحرق مدة اربع سنوات ، والثورة الروسية التي نشبت عام ١٩١٧ ، كل ذلك وما اليه ، انزل « بالنظام الليبرالي الرأسمالي »، هزات لم يعرف له معها استقراراً بعد . والمحاولات العديدة التي بذلت لاعادة الوضع القديم الى ما كان عليه ولبعث العصر الذهبي الى الوجود ، والرجوع بالانسانية الى لذة العيش والطمأنينة التي تنعم بهما العالم قبل ١٩١٤ ، باءت كلها بالفشل . وقبل ان يزح العالم من جديد تحت ضغط الازمة الاقتصادية التي اطلت عليه عام ١٩٢٩ ويُبتلى بعقابيل الحرب العالمية الثانية ، بـدا المحـــلال اوروبا أمراً لا مرد له ولا محيص عنه وكذلك النظام الذي كان اساس قوة اوروبا وسيطرتها . وإطلالة الاسبوع الاسود على وول ستريت في ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٩ كانت نذيراً بتـدهور النظام الرأسمالي ، وبذلك قضي تماماً على هذه الاحلام المعسولة التي راودت خيال رجال السياسة كما راودت خيال رجال الاعمال وكلهم يهفو الى طلوع عهد جديد من الطمأنينة معللا النفس بمستقبل زاهر بسام. وفي هذا الوقت بالذات تطل علينا حكومات وانظمة جماعية عبثت ساخرة، بكل المبادىء الليبرالية ، هذه المبادىء التي كانت الركن الركين للحضارة الاوروبية منـذ القرن الثامن عشر .

والحرب العالمية الثانية التي دهمت العالم قبل ان يستعيد قواه الخـــائرة في اثر الازمة الاقتصادية التي نزلت به ، حملت معها هذه النظم الفاشستية كما استفحل معها انقسام العالم محاور واحلافاً ، كما راحت بلدان كثيرة استبيحت باحتها تشرئب باعناقها الى الاستقلال متلمسة الحرية أينما هبت . فالقارة الآسيوية بأسرها تنفض عنها نير الدول المستعمرة واستخـــلاص بقايا

الامبراطورية من الاوروبيين بعد ان عاثوا بها وعبثوا، ولن يمضي كبير وقت حتى تستعيد حريتها السليب . وبلدان اميركا اللاتينية التي كانت تعول على الولايات المتحدة ، زادت نفرة من الدولار الاميركي ومن استعلاء اصحابه .

فالحقبة تؤلف ازمة تجعل كل مكتسبات الحضارة تهتز وترتجف امام ثورة عارمة لا مثيل لها ولا نظير . وقد ارتدى العالم وجهاً جديداً ليس في المجال السياسي والاقتصادي فحسب ، بل ايضاً في مجالات العلم والفن والفكر. وهي ثورة عميقة هزت عنيفاً النظريات الفيزيائيـة وطلعت علينا بكشوف علمية تأخذ بمجامع القلوب ، وتساعد على إعادة النظر في البنيان الفلسفي القائم. فرجال الفن والكتاب يبحثون عن اشكال وصيـغ جديدة تساعدهم على فهم وتفهم كل معضلات العصر ومنجزاته ، كما تفلسف لنـــا ، باسلوب جديد ، الوشائج والاواصر الجديدة ، التي تشد الانسان الى نفسه والى العالم .

وهكذا تم للإنسان نجاحات علمية وفنية قادرة على تغيير اوضاع الحيـــاة وظروفها ، وشرائط الحروب واصولها ، فتضع لاول مرة في التاريخ تحت تصرف البشر ، إذا مـــا ارادوا ذلك ، الوسائل التي تساعدهم تماماً ، على التغلب على الويلات التي اناخت منذ القدم ، على صـدر الانسانية ، وأرزحتها .